

أ.د. صغیر بن محمد الصغیر

الورع عن تتبّع أخطاء الآخرين

دروس من قصة أبي زرعة الرازي رحمه الله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ رَبِّهِمْ وَأَعْنِ يَا كَرِيمِ

إن من أدقّ المواقف التي تكشف أخلاق العلماء وورعهم قصة الإمام أبي زرعة الرازي -رحمه الله- التي رواها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، إذ قال: "أخبرنا علي بن المحسن، قال: أخبرنا طلحة بن محمد بن جعفر، قال: أخبرني قاضي القضاة أبو السائب، قال: حدثني عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، قال: اعتل أبو زرعة الرازي فمضيت مع أبي لعيادته، فسأله أبي عن سبب هذه العلة، فقال: "بتُّ وأنا في عافية، فوقع في نفسي أني إذا أصبحتُ أخرجتُ من الحديث ما أخطأ فيه سفيان الثوري، فلما أصبحتُ خرجتُ إلى الصلاة، وفي دربنا كلبٌ ما نبحني قط، ولا رأيته عدا على أحد، فعدا عليّ وعقرني، وحممتُ، فوقع في نفسي أن هذا عقوبةٌ لما وضعتُ في نفسي، فأضربتُ عن ذلك الرأي".^(١)

(١) تاريخ بغداد (٣١٧/١٢).

هذه القصة -على قصرها- جامعةٌ لأدب عظيمة، تبين خطورة تتبع زلات العلماء، وخطر النية، وعمق شعور السلف بتعظيم أهل العلم.

إذ لم يكن همّ أبي زرعة بيان الحق فحسب؛ فهو إمامٌ كبير مجرّب في النقد والجرح والتعديل، وإنما خشي أن تكون نيته تحمل شيئاً من الاستعلاء على إمام الأمة سفيان الثوري -رحمه الله-.

وحين وقع له ما وقع من عقر الكلب -وهو الذي لم يؤذ أحداً قبل ذلك- رأى أن هذه الحادثة تنبيهٌ إلهي إلى أن في نيته شيئاً لا يرضاه الله، فأعرض عن مشروعه كله.

هذه الحساسية الوجدانية الراقية هي التي ميّزت السلف، فجمعوا بين قوة العلم، وقوة المراقبة القلبية.

قال ربنا جل وعز: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(١) أي احفظوا
ألسنتكم من الإضرار والانتقاص.

وقال: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(٢) وفيه نهْي عن بناء أحكام
النفس على ما تتوهمه من خطأ الآخرين.

وقال ﷺ: "من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"^(٣)
والستر هنا أعم من الستر الأخلاقي؛ إذ يشمل الستر
العلمي والدعوي.

وهنا يجب أن نقف عند قول نبينا ﷺ: "بحسب امريء
من الشر أن يحقر أخاه المسلم"^(٤)، فكيف بمن يُظهر
خطأه ليُظهر نفسه؟ عافانا الله وإياكم.

(١) [البقرة: ٨٣].

(٢) [الحجرات: ١٢].

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٤) رواه مسلم (٢٥٦٤).

وإليكم -أيها الإخوة- أبواباً كبيرة من أبواب تطهير القلب من التتبع والانتقاص، وللسلف شواهد من تاريخهم في الورع عن الزلات، فهذا الإمام مالك رحمه الله، لما أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعلق كتاب "الموطأ" على الكعبة ويحمل الناس عليه، قال له الإمام مالك: "يا أمير المؤمنين، لا تفعل، فإن الناس قد سيقوا إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردَّهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم" (١)، وهذا دليل على عذره -رحمه الله- لغيره ممن خالفه لاختلاف ما وصلهم من العلم.

(١) سير أعلام النبلاء (٧٨/٨).

وهذا الإمام أحمد -رحمه الله- كان يقول: "لو أن رجلاً عمل بكل رخصة، لكان بذلك فاسقاً"^(١) أي بسبب تتبع زلات العلماء، والعمل بما يوافق هواه منها.

وقبله الشافعي -رحمه الله- حين قال: "ما ناظرت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ. وما ناظرت أحدا إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه"^(٢)، فهو لا يبحث عن الخطأ بل عن الحق.

قال الفضيل بن عياض -رحمه الله- فيما روي عنه: "المؤمن يستروينصح، والفاجر يهتك ويُعير"^(٣) فمن نشر زلة عالم على وجه التشهير، فقد خالف طريق المؤمنين.

(١) كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جامع الخلال (٦٥).

(٢) حلية الأولياء (١١٨/٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢٢٥/١).

وابن سيرين -رحمه الله- كان يُعرض عن ذكر خطأ العلماء، ويقول: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم" ^(١) وكان يحفظ هيبة العلم من أن تصبح ساحة للطعن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "نعوذ بالله سبحانه مما يُفضي إلى الوقعة في أعراض الأئمة، أو انتقاص أحد منهم، أو عدم المعرفة بمقاديرهم وفضلهم، أو محادتهم وترك محبتهم وموالاتهم، ونرجو من الله سبحانه أن نكون ممن يحيم ويواليهم، ويعرف من حقوقهم وفضلهم ما لا يعرفه أكثرُ الأتباع، وأن يكون نصيبنا من ذلك أوفر نصيب وأعظم حظ، ولا حول ولا قوة إلا بالله". ^(٢)

(١) رواه الدارمي (٤٢٤)، وابن أبي شيبة (٢٦٦٣٦)، والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح رقم (٢٧٣).

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى (٩٢/٦).

وهذه النصوص وغيرها تكشف أن السلف كانوا يفرقون بين النقد العلمي المشروع والتشهي لبيان الزلات.

فيا أيها المبارك: اعلم أن النية خطيرة: فقد يعمل العالم عملاً صحيحاً في ذاته، لكن النية تتلوث بشائبة خفية.

واعلم أن الستر عبادة قلبية: فالستر ليس ضعفاً، بل مقام رفيع، والنقد مسؤولية وليس هواية: فمن نقد ليتعالى، انقلب نقده وبالأعلى عليه، وانتقاص الآخرين لا يرفعك: فمن ظن أن ذكر أخطاء غيره يعلّيه فقد جهل السنن الكونية، والإنصاف زينة العالم: فمن فقد الإنصاف خسر نور العلم، ولو ملك الحجج، ومن أُعجب بنفسه عوقب: وقد فهم أبو زرعة -رحمه الله- هذا المعنى حين عُقر، فسمّا قلبه.

إن قصة أبي زرعة الرازي درسٌ خالدٌ لكل طالب علم وداعية ومربي ومثقف؛ فليس المقصود إسكات النقد

العلمي، بل تهذيب دوافعه، وتنقية طرق عرضه، وتجنّب تحويله إلى وسيلة لبيان التفوق أو انتقاص الآخرين.

إن الأمة اليوم بحاجة إلى روح هذا الورع: روح ترى نفسها أولى بالمحاسبة من الآخرين، وتطلب الحق لا الغلبة، وتستحضر قول ابن المبارك: "من أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نفسه تقصيرا، ثم لا يبالي ولا يحزن عليه".^(١) فالعلم نور، ولا يبقى نوره في قلب امتلاً بتتبع الزلات أو التنقّس عبر أخطاء الآخرين.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه
وسلم

وكتبه:

صغير بن محمد الصغير

٨ جمادى الآخرة ١٤٤٧

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي (١/٥١٥).